كتبت: محمد نعمان

أربعة وعشرون عاماً مضت على انتظار تحرك ملف مقر جمعية التوعية الإسلامية المهجور، فبعد إغلاق استمر سبعة عشر عاماً من توقيع قانون أمن الدولة السيئ الصيت،كان هنالك المزيد ليحلحل المسئولون وعود اليوم الأول لإعادة الافتتاح والتي قضت بأن يتم الهدم وإعادة البناء بأسرع وقت،ولكن ذلك الوقت السريع بمقياس مرحلة ما بعد الميثاق احتاج سبع سنوات وعدداً كبيراً من الجهود والاتصالات والمراسلات والتصريحات، لتتحرك العجلة من جديد وتنتهي معضلة العراقيل والمماطلات،ولينتهي فصل مقيت من فصول الحقبة الأمنية التي عصفت بشجرة «التوعية» وحالة دون بهاء التظلل بوارف ظل مقرها وإن لم تحل دون إثمارها،وجاء يوم الهدم لبدء مشوار إعادة البناء وحينها عزت دموع مؤسسيها الباكين على عزيز تراثها،وألقى محبوها على المقر نظرة الوداع الأخيرة، التي بدت فيها الشكاية على من ظلمها في زمن يفترض فيها الإصلاح.

تحركات الوفاق تثمر

مقر التوعية المهجور يهدم ويبقى شاهد على الحقبة الأمنية

نظرة الوداع

مفارقة شاسعة بين يوم الخامس من فبراير ١٩٨٤م و يوم الثاني من يناير ٢٠٠٨م ، فما بين هذين اليومين كانت هنالك شهادة مسجلة للتاريخ على كيفية تعامل العقلية الأمنية مع مراكز بث الوعي والثقافة، ففي اليوم الأول كانت القوات تحاصر مقر التوعية بالدراز، وتداهم المكاتب والصفوف وتقتلع البلاط وتحطم النوافذ،وتبدع في تفتيش الخزانات وبعثرت الكتب والمطبوعات،ويضيع ما درسه ١٥٠٠ طالب وطالبة في هذه المدرسة التي احتضنت أبناء تراب هذا الوطن المسلم المسالم. كل تلك الذكريات كان عليها أن تجول بخلجات المؤسسين والأعضاء الذين هرعوا وتركوا أعمالهم ليعيشوا لحظة التذكر الغالية على الزمن لا يمكن له أن يعود، دخلوا البوابة التي ظلت لسنين مغلقة بالشمع الأحمر،واجتازوا الباب المسروق وعلى الجوانب كان هنالك الحطام،مروا على الصالة الرئيسية،التي حلّق فيها أثير أصوات الشيخ عيسى أحمد قاسم والشيخ عبد الأمير الجمري وكلمات من الفقهاء والمفكرين الذين مرّوا بهذا المكان،فتناثرت بين الجدران كلمات نطقت بأحرف الوعي والهدى. ترقرقت الدموع والعيون ونطقت ذاكرة المكان،بما حل بهذا المقر من تدمير وحرق،وبدا أن الرماد وبقايا النار التي أحرقت المقر لأربع مرات لم يخفي معالم البطش والتنكيل،ولم يخفي الغبار وتقادم الزمن ما اقترفت الأيدي المتطاولة على العلم والثقافة. أسرعت آلات التصوير لتسابق آلات ومعدات الهدم،والتقطت ما يمكن إلتقاطه من التاريخ ووثقت شهادة على حقيقة دامغة من حقائق التعامل الأمني والمخابراتي في هذا الوطن، كل شيء مدمر ولم تكن إلا بقايا من العز والمجد الأثيل، كانت تنتظر بحسرة العيون الوفية لتلقي عليها نظرة الوداع الأخيرة.

عمّ كانوا يبحثون ؟

جولة قبل دقائق من ضربات الآليات على الجدران تكفيك وتعطيك ما تريد معرفته عمّا جرى، الأجهزة الأمنية اقتحمت هذا المكان وجاءت على آخرته ،فلم يكن هنالك حتى حواجز للسلالم،وكل شيء بدا شاكياً مما ذاق من تحطيم وبعثرة،عمّ كان يبحث هؤلاء ..أين هي المنوعات والأسلحة؟ كل ما هو موجود مقاعد دراسية وسبورات،مكتبة ورفوف مقلوبة وكتب دفاتر ومجلات وجرائد ممزقة ومتناثرة أين ما وضعت قدمك،أرصدة وأوراق رسمية وملفات وخزانات ،كل شيء بدا طبيعياً لمكان كان مقراً للدراسة والفعاليات والاجتماعات والأعمال المكتبية اليومية،فما الذي جاؤوا يفتشون عنها ويقلبون الطوابق الخمسة وسطوحها وأسقفها راساً على عقب ليجدوه،لا شيء يوحي بما هو غريب، أم أنها كانت حجة من بين الحجج لقمع الكلمة الواعية وإيقاف إشعاع مركز من المراكز العلمية ؟ فإن لم يكونوا وجدوا ما طلبوه ، فلماذا بقي المقر مغلقاً معرضاً للنهب والسلب ولم تبق فيه حتى أجهزة التكيفات والتمديدات الكهربائية، ولم تبق حتى الأبواب والنوافذ .. ولماذا ترك المقر ليحرق أربع مرات، ما الذي جنته التوعية والقائمون عليها ، ليلقى مقرها هذا المصير ..؟ جاءت المعدات والجرافات لتسهّل المهمة،وهدمت الجدران وحفرت ما تحت القواعد، فلم يظهر شيء مما أدعوه،وأثبتت الآليات أن لا شيء سوى النية لضربة الحركة الدينية والوقوف في وجه مؤسسة من مؤسسات نشر الوعي والتدين.

وأثمرت الجهود

شهدت جمعية التوعية منذ عودتها في مارس ٢٠٠١ م، تحركات تتوارثها الإدارات المتعاقبة من أجل إعادة بناء المقر الذي كان من المزمع أن تتم بعد أشهر من عودة التوعية،ولكن المماطلة الرسمية وتفكير صناع العراقيل كان بالمرصاد،حتى أن بعض الأشهر شهدت صمتاً رهيباً من قبل الجهات الرسمية الموكل إليها متابعة الملف مع الجمعية،ومن الملاحظة أن ملف جمعية التوعية المتخصصة في الشأن الثقافي،مرتبط بالحراك السياسي ويذكر أن هنالك مساومة جرت أيام المقاطعة في ٢٠٠٢ م ، مما يفسر شيئاً مما يجري ويحل بعضاً من الطلاسم المحيطة بملف المقر المهجور. كثير من المخلصين تحركوا من أجل حلحلة الملف الذي كان مطلباً لدى الشيخ عبد الأمير الجمري رحمه الله أيام الحصار ، وجاء التحرك الوفاقي ليتكثف مع أول شهر دخلت فيه الوفاق للبرلمان، ولتتزايد وتيرة المطالبة كما تتزايد فرص التحرك.